obeikandi.com

الفصل الرابع

سعود الثاني « ابن سعود »

صفحة بيضاء

obeikandl.com

سعود الثاني « ابن سعود »

كان عمر الأمير «سعود» خمسة وخمسون عاما، عند تولي الحكم في الدرعية وكان جده الأكبر يدعى بهذا الاسم، وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على السلالة الحاكمة قبل عهد الحركة الوهابية. كان الأمير «سعود» على اطلاع مباشر بالتوجيهات العليا لشؤون الدولة في عهد حكم والده، وبدأ اطلاعه على تلك الشؤون منذ أن نودي وريثاً للعرش في عام ١٧٨٨، واستمر اطلاعه على شؤون الدولة لمدة خمسة عشر عاماً، وله سجل حافل بالأعمال العسكرية التي غطت فترة دامت ٣٦ عاماً كان أولها مراسة وحنكته في الحملة العسكرية الناجحة ضد «عودة سدير» والتي كانت تحت قيادة ابن عمه اللزم «هذلول بن فيصل بن محمد» عام ١٧٦٧. ومنذ ذلك التاريخ وفي معظم الأوقات كان «سعود» قائداً للقوات التي بعث بها والده لأغراض متعددة على مدى فترة حكمه. وهكذا كانت له خبرة رائعة في خوض الحروب وفي إدارة شؤون الدولة التي آلت جميعها إليه ليتمم ما بدأه والده، فشهدت فترة حكمه ذروة إنجازات الحركة الوهابية.

وها هو «سعود» مجدداً يمتطي صهوة حصانه متوجهاً خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٠٤ شمالاً نحو «تنومة» في إقليم «القصيم». وهناك حشد رجال قبائله ومحاربيه من تلك المنطقة استعداداً لحملة فصل الربيع. مكث «سعود» هناك حتى نهاية شهر آذار واحتفل بأيام عيد الأضحى المبارك، وبعد انتهاء فترة العيد أعلن بشكل مفاجئ عن قراره بالعودة إلى الدرعية، وعليه سمح لكل الفرق العسكرية من مناطق الشمال بما فيها فرقة «الظفير» بالراحة وبالذهاب إلى ديارهم، لكن قاد بقية قواته متجهاً جنوباً

إلى الدرعية. ونظراً لحقيقة أنه كان أمام فرقة «الظفير» سفر طويل قبل الوصول إلى ديارهم على الحدود العراقية، وحقيقة أنه سبق وأن نشر خبر عودته إلى «الدرعية» فقد قام فجأة وغير وجهته وانطلق بقواته بالسرعة القصوى إلى «البصرة»، وعندما وصل إلى المناطق المجاورة لها اشتبك مع فرقة من خيالة «المنتفق» كانت إمرة «منصور بن ثامر». تمكن من دحرها ومن أسر قائدها «منصور» وأرسله إلى أحد السجون في الدرعية وبقي فيه لمدة أربع سنوات. وإثر هذه الواقعة عرج «سعود» بقواته على «الزبير» وأرسل جماعة من قبائل البدو الرحل لتهديد المناطق المحيطة بالبصرة لكن السكان أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ولم يغادروا تلك المناطق. صعد «سعود» من حشود قواته لتعزيز الحصار على «البصرة»، وقام خلال فترة الحصار بإزالة القباب المبنية فوق القبور في المقابر الواقعة وراء جدران المدينة، وهدم كل المجسمات المقدسة هناك بما فيها مزاري «الحسن» و«طلحة» اللذان لم يعاد ترميمهما إلا بعد سقوط الدرعية. هاجم «سعود» في تلك الفترة أيضاً قلعة «الدريهمية» ودمرها وقتل كافة رجال الحامية العسكرية التي كانت بداخلها. وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر كافة الجنود والرماة على مدافعه بإطلاق النيران دفعة واحدة. أدخل دوي الطلقات الرعب في قلوب أهالي المدينة المحاصرة، إلا أنهم لم يظهروا أية بوادر ضعف. وبعد حصار غير مجد دام لمدة اثنى عشر يوماً، أمر «سعود» قواته بالتراجع والعودة إلى الدرعية. لكن قبل عودته أمر جنده بجمع المحاصيل، التي كانت في ذلك الوقت قد نضجت وعلى وشك الجني، وأخذها جميعها لنفسه.

وعند تلك الفترة تقريباً كان سلطان مسقط والمدعو «سلطان بن أحمد بن سعيد» قد قتل في اشتباك بحري مع عرب «القواسم»[(١)] من منطقة «رأس الخيمة» وخلفه في الحكم أخوه «بدر». وجد «سعود» آنذاك أنه من الضروري إعادة النظر في بعض الترتيبات الإدارية التي كان والده قد أقرها في بعض الأقاليم، وعليه أمر بنقل «إبراهيم بن عفيصان» من «الخرج» إلى «الأحساء» ليحل محل «سليمان بن محمد بن ماجد» الذي قرر «سعود» إقالته من منصبه.

لكن لعله من أبرز التطورات التي شهدها ذلك العام، والتي تركت أثراً على مستقبل الصحراء العربية، كان مجيء «محمد علي باشا» إلى السلطة في مصر. لم يكن في تلك الفترة سوى قائداً للقوات التركية هناك. لكن بسبب انزعاجه من حادثة تافهة تتعلق بإيقاف أو التأخير في توصيل المؤن والرواتب إلى القوات العثمانية، قام بقتل «محمد باشا» حاكم مصر آنذاك ومزاولة مهام الحكم من بعده إلى أن يأتي إقرار بذلك الوضع من الصدر الأعظم، وفعلاً أقر الصدر الأعظم سلطة «محمد باشا» كحاكم على مصر وثبته في الحكم.

وفي ربيع عام ١٨٠٥ ووسط تقارير مفادها أن الناس في «الظفير» أصبحت تتساهل في الأمور والواجبات الدينية، وأنها أصبحت تشارك بعض القبائل في الهجمات على القبائل التابعة للدولة السعودية، قرر «سعود» ترتيب وإعداد حملة تأديب واسعة. وعند وصوله إلى منطقة «لينة»

---

(١) وصف القواسم بالقرصنة تهمة بريطانية روجوا لها تبريراً لتدخلاتهم وفرض نفوذهم في الخليج (المعلق).

في الجانب العراقي من صحراء «الدهناء» حيث كانت جماعة «الظفير» معسكرة هناك، وطلب الأمير «سعود» كما هي العادة من تلك الجماعة الانضمام إلى قواته، لكن لم تستجب إلى ندائه سوى فرقة صغيرة كانت تحت إمرة زعيمها «مسلط بن شويش بن عفنان». وعندما علق «سعود» على قلة عدد أفراد القوة التي لبت النداء وذبح زعيم القبيلة، رد «مسلط» قائلاً: إن باقي رجال القبيلة لم يعودوا يعترفوا بسلطة «سعود» عليهم وأنهم ينوون مهاجمة قبيلة «مطير» منتهكين بذلك الوعود التي قطعوها على أنفسهم للأمير «سعود» الذي قام قبل فترة قصيرة بالتدخل وتسوية الخلاف فيما بينهما. تحرك «سعود» بقواته نحو الحدود العراقية، لكنه غيّر وجهته فجأة وعاد ليلقي بكامل ثقل قوته على معسكر «الظفير» وتمكن في ذلك الهجوم من قتل عدد كبير منهم، وفر العدد الآخر هائماً على وجهه في الصحراء، كما استولى على كافة ممتلكاتهم التي شملت غنائم طائلة من الجمال والغنم والخيول والخيام والمؤن ومعدات في المعسكرات.

عاد «سعود» بعد ذلك الغزو إلى الزلفي وهناك وزع غنائم الحرب على المقاتلين. اتضح فيما بعد أنه كان في حوزة جماعة «الظفير» عدد كبير من الجمال والأغنام العائدة ملكيتها إلى عدة جماعات من قرى «سدير»، لذلك قام «سعود» بإعادة هذه الجمال والأغنام إلى أصحابها بناءً على ما قدم له من أدلة وبراهين مقنعة.

حوّل «سعود» بعد ذلك اهتمامه إلى مناطق الحجاز، وهناك شيد قلعة في وادي فاطمة وعززها بحامية عسكرية لممارسة الضغوط على «غالب»، إضافة إلى أن قلعة السعوديين في «زيمه» الواقعة في وادي اليمانية عند النقطة

التي تشرف على مدخل وادي فاطمة، كانت أيضاً مستهدفة. تلقى «عبدالوهاب أبو نقطة» أمير تهامة عسير أوامر بالتوجه إلى «جدة» بكل ما لديه من قوات متواجدة في تلك المنطقة. بلغ تعداد تلك القوة ٦٠٠٠ رجل وعسكر بهم في منطقة سعدية» القريبة من الساحل، والتي تبعد مسيرة يوم ونصف على ظهر الجمال.

تجلت ردة فعل «غالب» بأن قام على الفور بالتوجه بقوة ضخمة (يقال إن تعداد رجالها بلغ عشرة آلاف رجل) لمهاجمة «أبو نقطة» مستبقة وصول أية تعزيزات إضافية له. وفي الطريق اصطدمت قوات «غالب» مع قوة من «عسير» قوامها أربعون رجلاً تمكنوا من القضاء عليهم عن بكرة أبيهم؛ إلا أن منازلة قوات أبو نقطة كانت أمراً مختلفاً تماماً، إذ تمكنت قوات أبو نقطة من دحر قوات «غالب» وإجبارها على الفرار مخلفة ورائها كل ممتلكاتها وعدد معسكراتها وأسلحتها وذخائرها ومدافعها، وسقطت جميعها غنيمة في أيدي رجال أبو نقطة، ويقال إن عدد الأسلحة الخفيفة وبنادق الفتيل (الدك) بلغ ٢٥٠٠ قطعة، وبلغ عدد القتلى من رجال «غالب» ٦٠٠ قتيلاً معظمهم من الأتراك (العثمانيين). فر «غالب» إلى مكة وعاد «أبو نقطة» إلى ديرته (بلده) جذلاً مسروراً، علماً بأنه لم يصل إلى «جدة» التي كانت في الأصل النقطة المستهدفة لحملته. وبالمناسبة نقول هنا إن «ابن بشر» لم يشر إلى وجود «غالب» في مكة، لكن تدل كتبه التاريخية على آخر ما عُلم عن «غالب» أنه كان في «جدة» عندما عاد «سعود» إلى «نجد» بعد أن انتهى من تثبيت حاميات عسكرية في قلاع مكة. يقال أيضا بأنه ذهب فيما بعد إلى مكة، وليس لدينا علم فيما إذا استمرت الحامية السعودية في التمركز بتلك القلاع أم لا.

في تلك الفترة كانت كافة المناطق في الصحراء العربية على أعتاب موجة قحط ومجاعة، ويعزو الناس - ومنذ القدم - نقمة تلك المجاعة إلى اغتيال الإمام «عبد العزيز». بدأ جفاف موسم شتاء عام ١٨٠٤/ ١٨٠٥ واستمر لمدة ست سنوات (ويقول بعض الكبار في السن إنها استمرت لمدة تسع سنوات). عانى الناس خلال تلك الفترة وفي كافة مناطق الصحراء العربية من شظف العيش الذي تجلى بأحلك حالاته في مناطق الحجاز. ويعود السبب في ذلك إلى قطع السعوديين اتصالاتهم مع تلك المناطق التي كان الأشراف الأتراك آنذاك يحكمونها.

وصلت الأسعار في تلك الفترة إلى مستويات خيالية لا يمكن تصورها، وشملت كافة مستلزمات الحياة لدرجة أن الناس بدأت تأكل لحم الحمير ولحم الجيف والكلاب، ووصل سعر كيلو الزبدة إلى أربعة ريالات أو اثني عشر شلن من الجنيه البريطاني. ويقول المؤرخ «ابن بشر» إن المناطق الأفضل حالاً نسبياً والتي تواجدت في الدرعية والمناطق المحيطة بها، كانت تُقارن - من باب المباهاة والتفاخر - بالبصرة والأحساء، وذلك يعني أن الناس هناك كان بإمكانهم الحصول على التموينات والإمدادات من خارج حدود الصحراء العربية.

وفي فصل الخريف من ذلك العام قرر «سعود» أن يكثف ضغوطه على «غالب» فأرسل أوامره إلى «عبد الوهاب» وإلى «سالم بن شبكان» وإلى «عثمان المضايفي» للإعداد لحملة كبيرة جداً الهدف منها الهجوم على مكة والمناطق المحيطة بها. كما أمر أن تبقى القوات هناك لحين وصول قوافل الحج من دمشق، والتي كان ممنوعاً دخولها إلى مكة إذا كانت مسلحة. وجد

«غالب» نفسه عاجزاً عن مقاومة مثل تلك القوات الضخمة، ولذلك بدأ يعمل وعلى الفور من أجل التوصل إلى اتفاقيات سلام، ووعد بأن يتوجه شخصياً إلى الدرعية بعد انقضاء موسم الحج ليقدم الطاعة والولاء للحكم السعودي. وافق القادة السعوديين على طروحات «غالب» ودخلت قوافل الحجيج إلى مكة دون أية ممانعات، كما أدى «عبد الوهاب» و «عثمان» فريضة الحج بأنفسهم.

اجتمع بعد ذلك «عثمان» بـ «غالب» وقدم له «غالب» الهدايا القيمة، فما كان من «عثمان» إلا أن سحب قواته وقفل راجعاً إلى ديرته، ولم يقتصر ذلك على «عثمان» فحسب، بل قام «سالم بن شبكان» الذي أصيب بمرض خلال وجوده في مكة، بفعل الشيء نفسه، إلا أنه مات بعد فترة قصيرة من وصوله إلى «بيشة» وخلفه ابنه «فهد» في الحكم. استمر «غالب» في مراسلة الأمير «سعود» وتوصلا إلى عقد سلام بينهما على أساس أن يعرب «غالب» عن كامل ولائه وطاعته لنصرة الحركة الدينية، وعليه تم رفع المقاطعة والحصار وعادت المياه إلى مجاريها مرة ثانية، وأصبح باستطاعة مكة والحجاز أن تتواصل مع مصادر المؤن والتموينات من المناطق الداخلية، وهبطت الأسعار إلى مستويات معقولة وسارت الأمور على ما يرام.

لكن على ما يبدو لم تكن نوايا «غالب» سليمة، فوصلت أخبار إلى الدرعية عن تطورات في الأمور بلغت حد نقض التفاهم الذي تم التوصل إليه. وبموجب مزاعم مفادها أنه بناءً على أوامر تلقاها «عبد الله باشا العظم» أمير الحج من الصدر الأعظم، تم إبقاء بعض القوات التركية (العثمانية) والمغربية في منطقة الحجاز ولم يسمح لها بالعودة مع الحملة السورية التي رافقتها في القدوم إلى مكة.

ومن بين الملاحظات التي سُجلت ضد «غالب» تحصينه لأسوار «جدة» وحفر خنادق خلف تلك الأسوار وملئها بالماء. وبدأ الناس أيضاً يعترضون على منع «غالب» للأجانب بمن فيهم الزوار القادمين من مناطق «نجد» من الدخول إلى تلك المناطق، ومن بين المآخذ عليه أيضاً أنه كان يقضي معظم وقته في «جدة»، وعلى ضوء هذه المعطيات أصبح من الواضح أنه لا بد من مجابهته في الوقت المناسب. إلا أن الأمير «سعود» كان مشغولاً بقضايا أخرى وبالتحديد قضايا لها علاقة بالمناطق الحدودية مع العراق، خاصة أن «سعود» لم يعد ليثق ببدو «الظفير» الذين قاموا بالتعاون مع أصدقائهم باقتراف أعمال السطو والسرقة بحق الجماعات السعودية المعسكرة في مناطقهم. والأمر الملفت للنظر أنه وقع الخيار على «منصور بن ثامر» ليقود حملة للقضاء على تلك العناصر الغوغائية المتجمعة على الحدود العراقية، وجدير بالذكر أن «منصور» كان في تلك الفترة لا يزال من الناحية العملية أسير حرب في أحد سجون الدرعية. قرر «سعود» أن تكون قيادة تلك الحملة مناصفة بينه وبين «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة. وتوجه الاثنان بالحملة باتجاه «الظفير» وبالقرب من «حفر الباطن» شاهد قادة الحملة مجموعة غزو تقدر بمائة وعشرة رجال ترد مياه «الفليج»، فهاجمهم السعوديون وقتلوا منهم مائة وتمكن عشرة من الهرب.

ظهرت وبخطى متوازية مع هذه الأحداث تطورات بارزة على الساحة في المدينة، ونتيجة لهذه التطورات أعرب الناس عن خضوعهم للحكم السعودي، وفعلاً وافقوا على هدم كافة القباب المبنية فوق القبور وإزالة كافة المزارات في المناطق المجاورة. يذكر «ابن بشر» أن هذه التطورات بدأت في

obeikandi.com

عام ١٢٢٠ هجري وبالتحديد قبل عقد الصلح الذي تم مع «غالب» خلال موسم حج ذلك العام، وباعتبار أن هذا العام الهجري بدأ في الأول من نيسان ١٨٠٥ وانتهى في عشرين آذار ١٨٠٦، وكانت أيام الحج بين ٢٨ شباط وحتى الثالث من آذار، فبإمكاننا أن نفترض أن خضوع أهالي المدينة إلى الحكم السعودي جاء خلال أوائل صيف عام ١٨٠٥، وجاء الصلح مع «غالب» في أوائل شباط من العام التالي. ومهما تكن حقيقة الوضع فيعود أصل سقوط المدينة إلى الزيارة التي قام بها رجلان من «حرب» إلى الأمير «سعود»، وهما «بادي» و«بديع». وهذان الرجلان هما ابنا «بدوي بن مضيان» الذي وجد نفسه مفتوناً بعقيدة التوحيد. طلب هذان الرجلان من «سعود» أن يرسل معهما شيخاً ينورهم بتعاليم الدين وبمبادئ عقيدة التوحيد، فأرسل «سعود» معهم الشيخ «عثمان بن عبد المحسن أبو حسين»، ونتيجة لذلك تبنت هذه الجماعة موقفاً متشدداً من الحكم في المدينة، واتخذوا من مناطق «عوالي» مقراً قوياً لهم. وبناءً على أوامر تلقوها من الأمير «سعود» قاموا ببناء «قلعة» لهم وحصنوها وجهزوها، وانضم إليهم أهالي «قباء» وبدأوا يضايقون أهالي المدينة.

يقول «ابن بشر» في هذا السياق إنهم تمكنوا من عزل أهالي المدينة عن العالم الخارجي لعدة سنوات. هذا وعزز الأمير «سعود» مؤسستهم الدينية التربوية بأن فوض قاضي «الرس» الشيخ «قرناس بن عبد الرحمن» بأن يقوم بزيارتهم مرة كل عام. تعب أهالي المدينة من الحصار وبدأوا في مراسلة «سعود» وانتهى بهم الأمر كما أشرنا سابقاً إلى دخولهم في طاعته.

كان «سعود» منهمكاً في أعمال عدائية على الحدود العراقية، إذ قاد من هناك حملة لمهاجمة «مشهد» في «النجف»، ولم يكن من السهل اقتحام الأسوار القوية المدعمة بخنادق مملوءة بالماء، لذلك اكتفى المقاتلون السعوديون بتبادل نيران المدفعية على نحو متقطع، وبقي المدافعون متحصنين في أبراجهم وحصونهم، وسقط من بين المهاجمين عدد من القتلى. توجه «سعود» بقواته نحو «الهندية» و «هيلة» وهناك دارت المناوشات التي لم تفضي إلى نتيجة مقبولة، وبدا واضحاً أن الاستمرار في المناوشات على ذلك النحو لن يجدي في تحقيق نتائج قيمة، لذلك توجه «سعود» بقواته جنوباً نحو «السماوة» وهناك غزا أطراف المدينة ومزارعها وألحق بالمنطقة أضراراً أخرى خلال المناوشات المتقطعة. وفي طريق عودته إلى «الدرعية» حاول النيل من أهالي «الزبير» إلا أنه لم يحقق الكثير من المكاسب.

سبَّب تطور الأحداث التي وصلت أخبارها من أقصي الصحراء العربية (في بداية عام ١٨٠٦ أو أواخر عام ١٨٠٥) قلقاً للدولة السعودية: ففي مسقط ثار ولدا «سلطان بن أحمد بن سعيد» الذي كان قد قتل على أيدي «القواسم» ضد عمهم «بدر» الذي خلف أبويهما في السلطة، وتمكن الولدان من قتل عمهم «بدر» كما تمكن أحدهما وهو «سعيد بن سلطان» من اغتصاب الحكم. وفي منطقة «اليمن وتهامة» قرر زعيم ميناء الحديدة ومنطقة ديرة «بيت الفقيه» أن ينضم إلى الدولة السعودية، وهكذا أوجدت الدولة السعودية لها أول قدم في «اليمن» دون أن تقوم بأية مبادرة أو جهد، علماً بأن العرب في كافة أنحاء العالم العربي كانوا يدرسون ويتمعنون بدقة في

محاسن ومساوئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية. كان للأمير «سعود» تطلعات لضم نجران، فما كان منه في نفس ذلك العام إلا أن أصدر أوامره إلى «عبدالوهاب أبو نقطة» وإلى أميري «بيشة» و «وادي الدواسر» بأن ينضما إلى قوات «عبيدة» و «سنجان» من قبائل قحطان في الجنوب، وإلى جماعة «الوادعي» في شمال اليمن وبالتالي يقوموا بهجوم مدروس على «نجران» والمناطق المجاورة لها. ولتحقيق تلك الغاية تم حشد قوة تقدر بـ ٣٠ ألف رجل، إلا أن إنجازاتها لم تكن متكافئة مع قوتها وكثرة عددها: ففي الواقع لم تتمكن تلك القوة من الوصول إلى مشارف «نجران» لأن القوات المدافعة تمكنت من صد تقدمها في منطقة «بدر» وهي مقر قيادة جماعة «المكرمي» وهي جماعة إخوان من الشيعة أو من الطائفة الإسماعيلية. تكبد القوات السعودية هناك خسائر فاقت الخسائر التي تكبدها المدافعون. أمر «أبو نقطة» رجاله ببناء قلعة مواجهة لقلاع «المكرمي» المحصنة، وعزز تلك القلعة بحامية قوية على مستوى ذلك الحدث.

أجبرت نتائج ضم الحديدة إمام صنعاء على إرسال حملة عسكرية لاستردادها، وبعد حصار قصير تم فعلاً الاستيلاء عليها وعين ابن المشاكس «صالح» أميراً عليها. وفي تلك الفترة كان «صالح» موجوداً في منطقة «بيت الفقيه» فنظم حملة للهجوم على «زبيد» وتمكن بعد أن صمدت قلعتها القوية أمام هجومه من الاستيلاء عليها وعلى ممتلكاتها. ووفق ما هو مقرر ومتبع أرسل «صالح» إلى الخزينة السعودية حصة الحكم السعودي من الغنائم ووزع باقي الغنائم بين جنوده قبل أن يعود إلى ديرته.

وعلى ما يبدو حققت الدعوة السلفية بعض التأثير النفسي على أهالي اليمن في تهامة. كان الشافعيون منهم يكنون قليلاً من الحب للجماعات الزيدية التي كانت تعيش في المناطق المرتفعة. بلغ تعداد القوة التي أعدها «صالح» للهجوم على «الزيديين» حوالي «ثلاثة آلاف رجل بالرغم من وجود جيش الإمام الذي كان مرابطاً في السهول الساحلية للبحر الأحمر. والجدير بالذكر هنا أن «بديع بن بداوي» بطل مرحلة المدينة هذه لم يعش طويلاً بعد هذا النصر، إذ سقط في العام نفسه ضحية مرض الجدري وحل محله كزعيم على قبيلة «حرب» أخوه «بادي». وبعد ذلك بفترة قصيرة توجب على «بادي» أن يرحب بأول زيارة يقوم بها «سعود» إلى تلك المنطقة التي كان له ولأخيه دوراً بارزاً في ضمها إلى الحكم السعودي.

قرر «سعود» أن يحج للمرة الثالثة لكنه أدرك أنه من الممكن أن تنشب بعض المتاعب بسبب تصرف «غالب» المريب والمشبوه، خاصة إذا قرر الصدر الأعظم أن يرسل قوات قوية من الأتراك والجنود النظاميين لترافق حملة الحج من سوريا. ولهذا قرر اتخاذ بعض الاحتياطات وأطلع «أبونقطة» وبعض القادة الموثوق بهم على نيته في أداء فريضة الحج لذلك العام. أخبرهم بذلك الأمر قبل فترة طويلة من موسم الحج، أي مع نهاية شهر رمضان أو خلال الأسبوع الأول من كانون الأول عام ١٨٠٦. ولم يغادر «سعود» الدرعية إلا عند حوالي نهاية كانون الثاني، علماً بأن الحج كان من الممكن أن يبدأ في الثامن عشر من شباط ١٨٠٧ بدأت تظهر بوادر خطته المحكمة إذ تجمعت في المدينة حشود لاستبقاله اشتملت على قوات من «عسير» و «بيشة» و «رنية» وعلى رأس كل قوة وقف أميرها، وكان «عثمان

المضايفي» على رأس فرقة من سكان المناطق المرتفعة في «الطائف» إضافة إلى مجموعات أخرى من الحجاز والتي ألحقت بها فيما بعد قوات من «القصيم» بقيادة «حجيلان بن حمد» وقوات من «جبل شمر» بقيادة أميرها «محمد بن عبد المحسن بن علي» وفرقة «الوشم» التي انضمت إلى قافلة «سعود» بكامل قواتها من قبيلة «حرب» تحت زعامة «مسعود بن مضيان» و«جابر بن جبارة». قرر «سعود» أن تكون «المدينة» مكان ملتقى قواته ليقودهم من هناك وفي الوقت المناسب إلى «مكة» لأداء فريضة الحج. لكنه وقبل الشروع برحلته أرسل رسولاً إلى قادته في «المدينة» يطلعهم على تعليماته المشددة بعدم السماح للمحمل الذي يقل الحجاج من سوريا بالدخول إلى «المدينة» أو مواصلة السير إلى «مكة». وبناءً على هذه الأوامر وعند اقتراب الحملة السورية من الأماكن المقدسة، قام فريق بإخبار أمير الحملة «عبد الله الأدهم»، وبشكل لبق بأنه لن يسمح له بمواصلة المسير وطلب منه العودة مع رعاياه، وفعلاً عاد بالحملة لكن بعد احتجاج شديد اللهجة، وعاد معه إلى دمشق الحجاج الذين وصلوا إلى تلك المنطقة بعد عناء مسير خمسة أسابيع دون أن يحظوا حتى بالنظر إلى «المدينة» ناهيك عن رؤيتهم « لمكة ».

لكن الأمير «سعود» أكد - وبدون أدنى شك - أن مكة والمدينة كانتا تحت مسؤوليته وليستا تحت مسؤولية «السلطان». وبعد أن أجبرت القوات التابعة «لسعود» الحملة السورية على العودة إلى دمشق، أقامت معسكراً لها استعداداً للانضمام إلى قوات «سعود» التي انطلقت من الدرعية وبطريق مباشر قاصدة «مكة». أدى «سعود» ورجاله فرائض الحج وسط خليط من

الخشوع لله وعنفوان باد في عيون الرجال، وتلك كانت سمات الأوائل من السعوديين. ومن قصر «البياضية» الواقع على مداخل مكة والذي اتخذ منه «سعود» مقراً لقواته، وزعت الصدقات بشكل سخي. قدم «غالب» إلى ذلك القصر ليتشرف بالسلام على الأمير «سعود» وليجدد عهد الولاء الذي أساء إليه - تقريباً - طيلة مدة تزيد عن عامين. توجهت كافة القوات التركية المتواجدة في مكة والمناطق المجاورة لها إلى «جدة»، وكان الشغل الشاغل لـ «سعود» في تلك المرحلة أن يكسو «الكعبة» قبل مغادرته مكة بالرداء الجميل المطرز بخيوط الحرير الحمراء والذي كان قد جلبه معه لهذا الغرض. وهكذا أنهى سسعود» رابع حجة له قبل أن يتوجه إلى «المدينة» لزيارة[1] قبر الرسول محمد ﷺ.

وفي بداية شهر آذار من عام ١٨٠٧ غادر سعود مكة متوجهاً إلى المدينة وهناك كان همه الأول تقوية المواقع الدفاعية فيها والمواقع الدفاعية عن الواحة هناك ضد أي هجوم يمكن أن تقوم به القوات التركية لاسترداد المدينة. وعليه عمل على ترميم وإصلاح كافة القلاع المتهدمة، ووضع بها حاميات عسكرية وجعلها تحت القيادة العامة لرجل يدعى «حمد بن سالم» من قبيلة عتيبة. هذا وسرح «سعود» القاضي التركي (العثماني) القيِّم على مسجد الرسول، كما سرح عدداً من المشكوك بولائهم له وعين مكانهم شخصيات وهابية اشتملت على تعيين رجل من الدرعية في منصب رئيس دائرة عائدات الدولة هناك.

(١) الزيارة للمسجد النبوي الشريف والسلام على رسول الله ﷺ ولم يتوجه إلى المدينة بقصد زيارة القبر فقط كما يذكر فيلبي «المراجع».

وبعد أن جلس في «المدينة» فترة لم تحددها المصادر التاريخية، أمر سعود بتسريح فرق الجيش وعاد خلال فترة الصيف إلى الدرعية. حدثت في تلك الفترة (أي عند قرابة نهاية شهر حزيران) ثورة في قصر الصدر الأعظم باستانبول أسفرت عن عزل السلطان «سالم بن أحمد» وعين مكانه ابن أخيه «مصطفى بن عبد الحميد». وفي العام التالي نظمت مجموعة من كبار الرسميين ثورة مضادة استهدفت إعادة تنصيب «سالم» في الحكم، وكان «سالم» في تلك الفترة لا يزال نزيل السجن. وبناءً على توصيات مستشاري «مصطفى باشا» حُكم على «سالم» بالإعدام، فأبدى «يوسف باشا» زعيم تلك الحركة ردة فعل عنيفة حيال ذلك القرار، ونجح في إقالة «مصطفى باشا» وتنصيب أخاه الأصغر «محمد بن عبد الحميد» مكانه على العرش. ويقول «ابن بشر» في هذا السياق إن حكم «محمد بن عبد الحميد» استمر حتى عام ١٢٥١ هجري المصادف لعام ١٨٣٥/ ١٨٣٦ ميلادي، وهذا يدل على أنه بدأ الحكم في بداية عهد الملك فيصل أو قبل عهده بقليل. وعند حديثه عن موت السلطان «محمد» لم يعقب «ابن بشر» ويصحح هذه الملاحظة.

وبالمناسبة يمكن القول إن السلطان «سالم» وقبل إقالته من منصبه، كان قد أقال «عبدالله العظم» من منصبه كحاكم لسوريا، ويفترض أنه أقاله بسبب انسحابه الجبان من المدينة، وعين مكانه شخص يدعى «يوسف الكنج» كحاكم لسوريا. وفي العراق أيضاً جاءت خاتمة أحد أعداء «نجد» والمدعو «علي كيخيا» على أيدي بعض خدمه إذ أقدموا على قتله. والجدير بالذكر هنا أن «كيخيا» كان قد خلف «سليمان باشا» كوالي على «بغداد». وتولى

من بعده الحكم هناك شخص آخر يدعى أيضاً «سليمان» فأصدر حكماً بقتل أولئك الخدم وبقي في السلطة في انتظار فرمان من الصدر الأعظم يؤكد مشروعيته كوالي على بغداد.

استمر الجفاف والقحط في النيل من كافة مناطق «نجد» على مدى العام، لكن في نهاية العام هطل المطر وتمكن الأهالي من بذر بذور محاصيلهم ليخففوا قليلاً من عناء الكارثة التي ألمت بهم، وبالرغم من ذلك الوضع قام «سعود» بالحج للمرة الخامسة وصحب معه كالمعتاد حاشيته الضخمة، ووصل إلى هناك ووجد «غالب» وقد تأقلم تماماً مع الوضع وأصبح ودود وصديق حميم إلى أقصى درجة يمكن أن تخطر على بال، وبعد أن مضى في مكة فترة ثلاثة أسابيع تقريباً كان خلالها مهتماً بالعبادة وأداء فريضة الحج وتوزيع الصدقات بشكل سخي، وإكساء «الكعبة» بثوبها الباهظ الثمن، شرع «سعود» بزيارة «المدينة» وأمضى هناك بضعة أيام تفقد خلالها كافة الفروع الإدارية وصرف الكثير من اهتمامه للعديد من القلاع والحاميات العسكرية الموجودة فيها والتي وضعها جميعاً آنذاك تحت قيادة «عبد الله بن مزروع» ينتمي إلى أسرة عريقة من «منفوحة». ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه لم يشارك في رحلة الحج التي قام بها «سعود» ذلك العام أي شخص غريب سواء أكان ذلك من سوريا أو من أي مكان آخر.

ومع حلول شهر حزيران أصبح «سعود» مستعداً للغزو من جديد، فحشد قواته لشن هجوم على جبهات العراق، وكانت «كربلاء» أو أهدافه. سبق له أن استولى عليها وبسهولة إثر هجوم عاصف، لكنها الآن أصبحت محاطة بسور ضخم يمتد إلى مسافات شاسعة! هاجم «سعود» المدينة ونشر حول

أطرافها مجموعاته المقاتلة، إلا أنه سرعان ما أدرك أن القوات والإمكانات المتوافرة لديه لم تكن كافية لتحقيق ذلك الغرض، لذلك سحب «سعود» قواته وتوجه بها نحو «اثيثية» التي فر أهلها إلى المرتفعات المجاورة تاركين قراهم تحت رحمته. أقنعهم «سعود» بالعودة إلى ديارهم ووعدهم بعدم التحرش بهم وعدم المساس بممتلكاتهم باستثناء خيولهم التي بلغ تعدادها حوالي مائة فرس. بعد ذلك غزا «المنتفق» الواقعة بجوار قناة «مجاورة» و «سوق الشيوخ» لكن دون أن يحقق مكاسب كبيرة. وبعدها توجه إلى «البصرة» و «الزبير» وهناك أغار على ضواحيهما ملحقاً بها خسائر منوعة.

عاد «سعود» من هذه الحملة غير الناجحة تماماً، لكنه سرعان ما بدأ يعد العدة للقيام بالحج للمرة السادسة، وفعلاً رتب أمور ذلك الحج بنفس النمط الذي اتبعه في رحلات الحج السابقة، وكرس اهتمامه هذه المرة لأمور دينية هامة لم يتمكن الناس البسطاء من أهل مكة آنذاك من استيعابها: فقد جال شوارع المدينة رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمنعوا الناس من تدخين السجائر في المناطق العامة، وليحثهم على الصلاة في المسجد الحرام بعد سماع الأذان. واظب «غالب» على العناية بسيده وتبادل معه الهدايا الثمينة وأكد له على الاحترام والثقة المتبادلة. وألبست «الكعبة» حلة أجمل وأبهى من سابق كسائها، وكما كان الحال في العام الماضي لم تأت إلى الحج أية حملة من سوريا أو مصر أو العراق أو المغرب، باستثناء عدد صغير جداً من المغاربة الذين أتوا إلى الحج بعد أن تلقوا ضمانات بعدم التحرش بهم. وعاد «سعود» إلى الدرعية بعد أن أمضى في مناطق الحج ثلاثة أسابيع، ولم

يذهب خلالها إلى زيارة «المدينة» إلا أنه أرسل حاميات من الجند لتحل محل الحاميات التي خدمت فيها على مدى عام ونيف.

ولدى وصوله إلى الدرعية أرسل «سعود» حملة صغيرة إلى «عمان» وأرسل معها جماعة من الوعاظ والمتفقهين في الدين ليغرسوا في أذهان أهالي مناطق «عُمان» مبادئ التوحيد وليديروا الوضع هناك. قام الحكام المحليون وهم «قيس بن أحمد بن الإمام» من منطقة «صحار» وابن أخته «سعيد بن سلطان» من «مسقط» بحركة عكرت صفو الأمن في المنطقة الواقعة تحت سيطرة السعوديين والتي كان يزحف للاعتداء عليها جيش قوامه عشرة آلاف رجل. كان الأمير الحاكم لذلك الإقليم رجل يدعى «سلطان بن صقر بن رشيد» من «رأس الخيمة». سارع هذا الأمير وحشد قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لمواجهة الغزو، وتقابل الفريقان في منطقة تدعى «خورفكان» وهي تقع بين عاصمة السلطان وبين مقاطعة «البطنة» قتل في ذلك الاحتدام الدامي «قيس» كما تم دحر جيشه، وقتل العديد من رجاله في حين أغرق الأعداء قسماً آخر من رجاله في البحر أثناء محاولتهم الهرب. بلغ العدد الإجمالي للقتلى أربعة آلاف رجل. أرسل «ابن قيس» مبعوثين واحد إلى السلطان «ابن صقر» والآخر إلى الأمير «سعود». وناشد من خلال مبعوثيه إيقاف القتال والتوصل إلى سلام، وأعلن عن استعداده واستعداد أتباعه في اعتناق العقيدة والدخول في الطاعة. حظيت مناشدته بالقبول وسرعان ما حذا «سعيد بن سلطان» حذوه، وكانت النتيجة أن كل أهالي «عمان» خضعوا لحكم «سعود»: وقام «سلطان بن صقر» على الفور بتوزيع غنائم الحرب ولم ينسى أن يقدم خمس الغنائم إلى ممثلي «سعود» ليقوموا بدورهم بإرسالها إلى الدرعية.

استمرت المجاعة والقحط في إنزال الكوارث في كافة أجزاء الصحراء العربية، كما ارتفعت أسعار كافة مستلزمات الحياة، وجاءت الكوليرا لتزيد من مآسي الناس فأودت بحياة العديد منهم.

حدث كسوف للشمس عند حوالي الثامن عشر من شهر تشرين ثاني ١٨٠٨، وفي شهر كانون الثاني مات قاضي الأحساء المشهور «محمد بن سلطان العوسجي»، واستمر وباء الكوليرا حتى منتصف صيف عام ١٨٠٩ وبلغ أشده في منطقة الدرعية والمناطق المجاورة لها. وهناك كان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو أربعين شخصاً في اليوم الواحد، ومن بين الذين لقوا حتفهم كان قاضي الدرعية «حسين بن محمد بن عبد الوهاب» الذي خلفه ابنه «علي» ليواصل المسيرة على نهج أبيه وأجداده. وفي ذروة ذلك الوباء أصدر «سعود» (الذي لم ينسى أبداً الإرادة الإلهية في مثل هذه الأحداث) بياناً طلب فيه من الأهالي التجمع للتفكير عن خطاياهم ولطلب الغفران من الله، وذكر في ذلك البيان عدة قضايا تستوجب الإصلاح، واختتم بيانه بدعاء إلى الله بأن يرفع عن شعبه المؤمن شر ذلك الوباء. ويقال إنه عندما قرأ هذا البيان على جموع المصلين في جامع الدرعية، بدأ الوباء بالتلاشي تدريجياً. الضحية الأخرى التي استهدفها الوباء كانت ابن أخو «سعود» الأمير «سعود بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود» كما قضى الوباء على أربعة أشخاص آخرين من عائلة أمراء العيينة.

وعند حوالي منتصف عام ١٨٠٩ شن «سليمان باشا»، وهو ابن أخو والي بغداد، حملة قوية قصد بها تأديب «الظفير» و «عنزة»، وأقام معسكره داخل الصحراء العراقية.

كانت قبائل «الظفير» تحت إمرأة «شويش» الذي سبق أن أشرنا إلى اسم ابنه في سياق هذه القصة. وكانت قبائل «عنزة» تحت إمرة «دوري بن شعلان» واستمرت القبائل في تبادل الهجمات لعدة أيام وعندما شعروا بأنهم كانوا على وشك أن يهزموا قرروا أن يقوموا بمحاولة يائسة لإنقاذ أنفسهم، فشنوا هجوماً عنيفاً تمكنوا به من تفريق القوات العراقية وإجبارها على الهرب. هذا وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات، إلا أن رجال القبائل تمكنوا من السيطرة على أرض المعركة وعادوا إلى مرتفعات نجد يحملون معهم كل الغنائم التي استولوا عليها.

هبت عاصفة غير عادية في منتصف شهر تموز وجلبت معها الأمطار التي هطلت ضمن نطاق مناطق «طويق» وعلى امتداد ٤٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، منهية بذلك الجفاف الذي دام لفترة طويلة. واستمر هطول المطر لعدة أيام وسالت على إثره السيول في معظم وديان المنطقة، ونضجت ثمار أشجار النخيل. أدى ذلك الخبر إلى هبوط الأسعار وبدأت كافة نواحي البلاد بالانتعاش تدريجياً.

كان «سعود» منشغلاً في مشكلات «تهامة عسير»: كان شريف منطقة «أبو عريش» والمدعو «حمود أبو مسمار» وهو من أبناء شريف مكة «أحمد ابن أبو نمي» يتشاجر مع «عبد الوهاب أبو نقطة» وهو الأمير السعودي على كافة مناطق تهامة. ومنذ أن أعلن «حمود» التزامه بمبادئ دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب قام رجال الدولة بجمع الأموال المفروضة على موانئ مقاطعته بما فيها مقاطعة «جيزان»، وفي تلك الأثناء كان ابن «حمود» يقضي زيارة طويلة في الدرعية عند الأمير «سعود».

واستمرت الأمور على هذه الحالة لفترة من الزمن إلى أن نشب سوء تفاهم بين «حمود» و «أبو نقطة». ونتيجة لهذا الحدث استدعى «سعود» الأطراف المعنية ليجتمع بهم في الدرعية، وخلال ذلك الاجتماع حدثت مشادات كلامية حادة، زادت من صعوبة التوصل إلى تسوية لتلك المشكلة. وفي محاولة لسبر مدى ولاء «حمود» أرسل «سعود» تعليمات إليه أمره فيها بمهاجمة «صنعاء» عاصمة اليمن، لكن «حمود» تجاهل تلك الأوامر.

أصبح من الواضح الآن أن «حمود» قد بدأ تمرده ضد «سعود»، وعليه بدأ «سعود» في حشد قواته من كافة مناطق الصحراء العربية أن بلغ تعداد ما جمعه من القوات لقمع ذلك التمرد خمسون ألفاً. فوض «سعود» زعيم قبيلة عتيبة المدعو «غصاب» ووضع برفقته فرقة قوية من الخيالة وخوله حق ممارسة سلطته في كافة المناطق التي شهدت ذلك التمرد، وطلب منه أن لا يتدخل في شؤون إدارة منطقة «أبو نقطة» الذي أبقى في يده زمام السلطة على الإقليم وقيادة القوة المتواجدة فيه والمؤلفة من عناصر محاربة من كل مناطق «جيزان» (امتداداً من الطائف وجنوباً حتى خميس مشيط)، إضافة إلى عناصر من جماعات بدو «قحطان» و «عبيدة» وقبائل أخرى. ولمقاومة هذه الحشود تمكن «أبو مسمار» من جمع قوة كبيرة من مناطق مرتفعات «اليمن» بما فيها قبائل «حاشد» و«بكيل»، إضافة إلى عناصر أخرى «حمدانية» وعناصر من «نجران» وبدو «يام» و «دهم». وبعد أن شكل حاميات قوية ووضعها في كافة القلاع في تلك المنطقة، تقدم «أبو مسمار» بالجزء الأكبر من جيشه لمهاجمة القوات السعودية التي كانت متجمعة في وادي «بيشة»، فداهم «حمود» القوات السعودية قبل أن تتاح لها فرصة

الانتشار، وقصد بهجومه وعلى وجه التحديد قوات «عسير» التي كانت تحت إمرة «عبد الوهاب أبو نقطة»، ودارت معركة تقاتل فيها الطرفان وأسفرت عن مقتل «أبو نقطة» وعدد كبير من رجاله. تحركت الفرق السعودية الأخرى بكامل عدتها وعتادها وقيادتها لمقاتلة «حمود»، تمكن الجيش السعودي من دحر قواته وأجبروها على الفرار بشكل مخز ومشين، وطاردوهم وسلبوا كل ممتلكاتهم.

انطلق «حمود» والفرسان المرافقة له يسابقون الريح والخوف من أعدائهم يملأ قلوبهم، ولم يتوقفوا إلا بعد أن وصلوا إلى قلاع «أبو عريش»، في حين استمرت القوات السعودية الظافرة في الطواف حول أطراف منطقة «صبيا» والحقوا بها خسائر كبيرة. استسلمت قلعة «صبيا» الضخمة دون قتال قام «غصاب» وعلى الفور بوضع حامية فيها، كما أرسل قواته في كل اتجاه لاخضاعها وتدمير تحصيناتها. كانت بعض القوارب التابعة للقوات السعودية راسية في البحر، فحملوها بما غنموه من محتويات مستودعات الجمارك في «جيزان» والتي اشتملت بالدرجة الأولى على القهوة. خلف «عبد الوهاب أبو نقطة» في منصب إمارة «تهامة عسير» ابن عمه «نامي ابن شعيب».

كان «سعود» في تلك الأثناء يستعد لمعاودة زيارة «مكة» لأداء فريضة الحج للمرة السابعة، وصادف موسم حج ذلك العام في منتصف شهر كانون الثاني من عام ١٨١٠، وقرر «سعود» أن يحتفل بذلك الحدث في أرقى مظاهر الاحتفلات الرسمية. فشجع كل رجال القبائل الرحل والقبائل المستقرة بالقدوم إلى الحج مع عوائلهم. ورافقه في ذلك الحج ابنتاه وعدد

كبير من صاحبات السمو من عائلة «مقرن» وتمت مراسم الحج واحتفلاتها وبدون حدوث أية مشكلات تذكر، ولم تشارك في موسم ذلك الحج أية حملات أجنبية سبق لها أن زادت من تعداد الحجاج في مشاعر الحج. استمرت العلاقة بين «سعود» و «غالب» بنقاء ودون أية مشكلات تعكر صفوها. وبعد أن استبدل «سعود» القوات المرابطة في الحاميات الموجودة حول «مكة» بقوات أخرى بقصد إراحتها، غادر «سعود» الأماكن المقدسة في بداية شهر شباط قاصداً الدرعية.

في تلك الفترة بلغت المشكلات في «عجمان» ذروتها، إذ أعلن «سعيد ابن سلطان» تخليه عن ولائه للحكم في الدرعية، واستدعى القوات البريطانية لمهاجمة معاقل السعوديين في «رأس الخيمة». سلط البريطانيون المبرقات الشمسية التي في حوزتهم وجعلوها تعكس أشعة الشمس على الأكواخ في منطقة «رأس الخيمة» مما تسبب في اشتعال النيران فيها، فاضطر «سلطان بن صقر» ورجاله إلى التراجع داخل مناطق الصحراء ونزلت البحرية البريطانية وأكملت تدمير القرية، لكن سرعان ما أعاد الأهالي بناءها إثر انسحاب تلك القوات منها. وعند وصول هذه الأخبار إلى الدرعية، قام «سعود» على الفور بإرسال «عبد الله بن مزروع» على رأس قوة من «نجد» لاحتلال «البريمي» وإنشأ مقراً رئيسياً للقوات السعودية فيها، كما أرسل «مطلق المطيري» على رأس قوة تشرف على تجنيد أهالي «عُمان» وتدريبهم على شن حرب ضد زعيم مسقط المتمرد. ركز «مطلق» عملياته الأساسية على طول شريط واحات نخيل «الباطنة» الواقعة بمحاذاة الساحل بين «رأس الخيمة» و «مسقط»، وبالتحديد وجهها ضد مدينة «صحار» التي تعتبر معقل «عزان بن قيس» الذي كان قد خلف والده الذي قتل في أحد الهجمات

السعودية على مناطقهم. وفعلاً تم الاستيلاء على العديد من القرى كما تم جمع العديد من الغنائم وتمكنت القوات السعودية أيضاً من قتل حوالي ٥٠٠ رجل من رجال «عزان» في معارك دامت طيلة فصلي الخريف والشتاء لعام ١٨٠٩ حتى بوادر ربيع العام التالي. لم يهاجم السعوديون «مسقط» بالذات في حين صدت «صحار» كل المحاولات السعودية العاصفة التي استهدفت الاستيلاء عليها. واستسلمت باقي المناطق إلى «مطلق» ودخلت مجدداً في الحظيرة السعودية.

ومما تزامن مع هذه الأحداث هو أن «سعود» وجد نفسه مضطراً حيال تصرفات حكام «آل خليفة» للبحرين و«الزبارة» أن يرسل حملة للتعامل مع تصرفاتهم المريبة قبل التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج.

كان «محمد بن معيقل» قائداً على تلك الحملة، لكن الأمير «سعود» أرسل له فيما بعد تعزيزات تحت إمرة «عبد الله بن عفيصان» ابن «إبراهيم» الذي كان في وقتها أميراً على «الأحساء». بقيت تلك القوات في منطقة «الزيارة» لمدة أربعة شهور دون أن تقوم بأي عمل عسكري. وبعد عودة «سعود» من موسم حج ذلك العام قامت تلك القوات المشتركة أو بالأحرى هددت بالقيام بهجوم عنيف ما لم يوافق زعماء «آل خليفة» على السير معهم إلى الدرعية. وكان من بين كبار الذين قدموا إلى عاصمة «سعود» زعيم البحرين والزبارة الاسمي «سليمان بن أحمد بن خليفة» وأخوه «عبدالله» وعمهما «عبد الله بن خليفة»، ومعهم كافة أبنائهم. استقبلهم «سعود» بخطبة رنانة تتعلق بظلم وجور الأساليب التي كانوا يتبعونها، وأمر بإيقاف الزعماء الثلاثة لكنه سمح لأبنائهم وأتباعهم بالعودة على شرط أن يسلّموا

كل ما يملكونه في البحرين والزبارة من خيول وجمال ومعدات عسكرية أخرى إلى القوات السعودية. أصدر «سعود» أوامره إلى «فهد بن سليمان بن عفيصان» وطلب منه أن يتولى زمام الأمور في تلك الجزر، كما طلب منه أن يعين شخصاً ليكون مسؤولاً عن جمع العائدات.

قام أبناء زعماء «آل خليفة» وبسبب عدم ارتياحهم للتحول الجديد الذي شعروا من خلاله بأنهم مجرد مواطنين عاديين في ديرة كانوا يحكمونها، بأن هربوا خلسة كل نسائهم وثروتهم من الذهب، وحملوها على قوارب يقال لها «الدحو» كانت موجودة في ميناء «الزبارة» وهربوا بها جميعاً إلى «مسقط». حدث بالصدفة أن كان عدد من السفن البريطانية موجودة في ذلك الوقت في ميناء «مسقط»، وعلى الفور تم تنظيم حملة بحرية ضخمة للتوجه إلى «الزبارة». وبعد أن تمكنت السفن البريطانية من الحامية السعودية ومن المواقع العسكرية التابعة لها، واصلت سيرها نحو «البحرين» وبعد أن استسلم «فهد» وفق شروط معينة تمكنت من محاصرة قواته التي كانت في قلعة «المنامة» ليومين متتاليين، وتم احتجاز «فهد» وستة عشر من رجاله كرهائن مقابل إطلاق سراح مشايخ «آل خليفة» الموقوفين في الدرعية وأطلق البريطانيون سراح باقي القوات السعودية.

كان «سعود» في تلك الفترة منهمكاً في حملة انطلق بها نحو الشمال، وعندما عاد وسمع أخبار آخر التطورات في البحرين، عرض عليه مشايخ «آل خليفة» المحتجزون اقتراحاً قالوا فيه إنه مقابل أن يقسموا يمين الولاء للأمير «سعود» فإنهم يطلبون إطلاق سراحهم والسماح لهم بالعودة إلى «الزبارة» لمناقشة المشكلة مع أبنائهم وأصدقائهم على أساس قبولهم للحكم

السعودي، وإذا نجحوا في ذلك كان خيراً وإن لم ينجحوا فسيعودوا إلى السجن في الدرعية. وافق «سعود» على هذا الاقتراح وأرسل معهم مرافقين، إلا إن مشايخ «آل خليفة» فشلوا في إقناع أبنائهم وأصدقائهم في جدوى ذلك الاقتراح، وعادوا إلى الأسر في الدرعية، وفي تلك الأثناء أطلق البريطانيون سراح «فهد بن عفيصان» ورجاله الأسرى.

وصل «سعود» في حملته نحو الشمال كما سبق وذكرنا آنفاً، لكن ليس فقط إلى حدود «سوريا» بل توغل بها لمسافة أدخلت الرعب في قلوب سكان «دمشق»، وشاهد «سعود» ولأول مرة منظر الثلج على قمة جبل «حرمون». وفي الواقع اختلط الأمر من الناحية الجغرافية على المؤرخ «ابن بشر»، لكن القمة الجبلية المغطاة بالثلوج بالقرب من «نابلس» كما ذكر «ابن بشر»، والتي احتمت خلفها القبائل التي استهدفها «سعود»، لا يمكن أن تكون سوى سلسلة جبال «القلمون». في شهر آيار استهدف «سعود» تجمعات قبائل بدو من سوريا يعتقد أنها كانت في منخفض منطقة «نفرة الشام». وصلت إلى هذه التجمعات أخبار تحركات «سعود» الأمر الذي حدا بها أن تحل مضاربها وترحل إلى مضارب «الدوخي بن سُمير» زعيم عشيرة «أولاد علي من عنزة» في منطقة «الغور»، والمقصود بها إما «سهل البقاع» بين لبنان وسوريا أو وادي الأردن. على أي حال أخذ «سعود» يحوم بقواته حول سهول «حوران» ملحقاً خسائر مادية في المزارع المحيطة بها في مناطق «المزيريب» و «بصرة اسكيشام»(*)، وهرب الناس من منازلهم

(١) بصرة اسكيشام: هي بصرى الشام سابقاً وحالياً درعا على الحدود السورية الأردنية.

وقراهم عند سماعهم عن زحف القوات السعودية. قامت القوات السعودية بمحاولة الهجوم على قلعة «المزيريب» لكن سرعان ما تخلت عن تلك الفكرة، وسحب «سعود» قواته وتوجه بها إلى منطقة «البصرة» في حوران ومكث هناك لفترة قصيرة قبل أن يعود إلى ديرته محملاً بالغنائم التي استولى عليها. تمخض هذا الحادث عن عزل حاكم دمشق السيد «يوسف» وعُين مكانه «سليمان باشا» الذي كان حاكماً على «صور» وصدرت إليه الأوامر بمصادرة كافة أملاك سلفه «يوسف».

ونتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في أعقاب العاصفة التي هبت في شهر تموز من عام ١٨٠٩ تحسنت الأوضاع بشكل سريع. فبسبب الجفاف الطويل الذي سبق هطول الأمطار وصل سعد كل أربعة صاعات من القمح ريال واحد، إلا أن سعر الصاعات إثر سقوط المطر أصبح نصف ريال، واستمر سعرها في التحسن إلى أن أصبح الناس في شتاء عام ١٩١٠ يشترون ١٣ صاعاً بريال واحد، كما أصبحوا يشترون ٣٧ وزنة من التمر بريال واحد بينما كانوا يشترون بالريال الواحد في بداية الفترة نفسها عشرة وزنات ونصف الوزنة. لكن لم تبدو بشائر سلام دائم للحكم السعودي في الصحراء العربية، إذ طلت بوادر المشكلات في شهر آب في مناطق «تهامة عسير» حيث بدأ «حمد أبو مسمار» - بعد أن تعافى من هزيمته في «وادي بيشة» - يعد العدة للحرب. كلف «عثمان المضايفي» بالتعامل مع تلك المشكلة واشتبكت قواته مع قوات «حمد أبو مسمار» في مكان يقال له «الوهلة». مني «أبو مسمار» بهزيمة أخرى وقتل من رجاله حوالي ٢٥٠ رجلاً. وفي نفي ذلك الوقت كان «نامي بن شعيب» حاكم «تهامة عسير»

obeikandl.com

الجديد يعد العدة للتوغل في مناطق «تهامة اليمن»، وتوجه بحملته واستولى بهجوم عاصف على «اللجنة» بعد أن حاصرها لفترة قصيرة، واستولى على كافة البضائع والأشياء الثمينة التي وجدها في مستودعات الجمارك وفي متاجر التجار. ويقال إن ألف رجل لقوا حتفهم في هذه المعارك التي انتهت بعد أن التهمت النيران كافة أرجاء المدينة. تابع «نامي» تقدمه نحو «الحديدة» بجيش بلغ تعداده عشرون ألف رجل، ووصلت أخبار تقدم هذا الجيش إلى أهالي «الحديدة» فما كان منهم إلا أن حملوا كل ما غلا ثمنه وخف حمله على قواربهم وأبحروا بها في البحر. وبهذه الحالة كان من السهل على «نامي» الاستيلاء على المدينة، والحاق خسائر بشرية ومادية بأهلها. لكن السعوديين لم يقوموا بأية محاولة جادة لإقامة إدارة محلية، سواءً في «الحديدة» أو في «اللحية» لأن غاية الحملة على ما يبدو كانت جمع أكبر عدد ممكن من الغنائم.

لم تتعدى المشكلات في بغداد النطاق المحلي، ولو تؤثر على مصالح الصحراء العربية، علماً بأن «ابن بشر» يسرد الكثير عن تلك المشكلات، لكن يكفي أن نذكر بأن «سليمان باشا» والي بغداد الذي صدرت إليه الأوامر بأن يحول عائدات العديد من السنوات المتراكمة إلى الصدر الأعظم، تعرضت لهجوم شنه عليه زعيم الأكراد « عبد الرحمن باشا» وقتله واحتل المدينة وسلب أموالها بمناصرة واليها «عبد الله باشا» الذي كان ألعوبة في يده. أرسل السلطان جيشاً لتأديبه ومعاقبته على تجاوزاته، وطلب من شاه «إيران» أن يساعده بأن يشن هجوماً على «كردستان»، وفعلاً قام شاه «إيران» بالهجوم وضم «كردستان» إلى مملكته بعد هروب «عبدالرحمن».

وفي نهاية شهر كانون الأول من عام ١٨١٠ قدم «سعود» مجدداً إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الثامنة وكان المؤرخ «ابن يشر» شاهد عيان فيها . وحدث في نفس ذلك الشهر أن توفي سلفه مؤرخ نجد «حسين بن غنام الإحسائي» ، ولعله من الملفت للنظر أن «ابن بشر» لم يشر في رثائه له إلى مؤلفاته التاريخية التي استقى منها وبحرية الكثير من الأخبار والمعلومات.

على أي حال قدم لنا «ابن بشر» صورة جميلة عن العاهل السعودي وهو في زي الإحرام يمتطي جمله وسط حشود كبيرة في مسجد «نمرة» لتستمع إلى الخطبة التي أدلى بها «سعود» حول معنى وأهداف الحج ، كما استعرض في خطبته تلك الأمن والرفاهية التي تتمتع بها مناطق الصحراء العربية بفضل رحمة الله ودين الإسلام ، واختتم خطبته قائلاً إن من غير المسموح لأي شخص أن يحمل السلاح في مكة المكرمة ، ولا يجوز لأي امرأة أن تتباهى بحليها تحت طائلة التعرض لأقسى العقوبات ، وهنا اقترب منه «غالب» وهو على ظهر جواده وبجانبه واحد من أتباعه ، وترجل الاثنان وعانقا الأمير السعودي أمام حشود الحجاج - عدو الماضي وحليف اليوم - وأخذا مكانهما في الصف الأول لأداء صلاة الظهر استعداداً لإتمام مناسك الحج في عرفة ، «إذ إن الحج عرفة» . ويشهد «ابن بشر» على حقيقة أنه بعد ذلك لم يجرؤ أي شخص من ذلك الحشد من الحجاج على التدخين في شوارع مكة كانت تلك الشوارع تخلو تماماً من الناس عندما يرفع المؤذن الأذان للصلاة. ومن أفضل مناطق الحرم المحببة للإمام «سعود» كانت منطقة على سطح بناء فوق بئر «زمزم» تقع مباشرة أمام الكعبة . وفي تلك المناسبة أمر سعود بإزالة القبة التي كانت تغطي مقام إبراهيم وهو الحجر الذي كان

obeikandl.com

إبراهيم يقف عليه أثناء بناء الكعبة، وذلك لكي يتمكن الحجاج من النظر مباشرة ومشاهدة ذلك المقام الديني المقدس، ويصف «ابن بشر» هذا المقام بقوله إنه كان حجر مربع في قسمه العلوي يبلغ طوله حوالي ثمانية عشر بوصة ومطلي بالذهب أو البرونز في قسمه العلوي، وتبدو آثار قدميه الطاهرتين ظاهرتين تحت ذلك الغطاء وهي تعلو سطح الحجر بعرض يبلغ حوالي أربعة أصابع حدث أن مات خلال تلك الأيام أحد كبار مشايخ «نجد» ويقال له الشيخ «أحمد بن ناصر بن عثمان بن معمر» الذي تتلمذ على يد الشيخ «حسين بن غنام». ومن بين الذين شاركوا في حملة الحج هذه أيضاً كان الشيخ «سليمان بن عبد الله». ومن بين الذين شاركوا في حملة الحج هذه أيضاً كان الشيخ «سليمان بن عد الله» وهو حفيد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» ومن بين الطلبة البارزين عند ذلك المؤرخ.

عاد «سعود» إلى الدرعية ووجد أمامه أزمة محلية في أن ثلاثة من أبنائه وهم: تركي وناصر وسعد كانوا قد فروا من الدرعية وذهبوا إلى «عُمان» بحثاً عن مغامرات أو عن مجالات أكبر مما كان والدهم قد سمح لهم. سبق أن حصل بعض الجدال حول هذا الموضوع بين «سعود» وأبنائه قبل توجهه في حملة الحج تلك، وكان الأبناء الثلاثة قد طلبوا الإذن منه بالانضمام إلى الجيش في «عُمان» إلا أن «سعود» كان مقتنعاً بأن ما كانوا يتمتعون به كان كثيراً، وعليه رفض أن يغادر أبناءه الدرعية. وعلى أي حال فإنهم فعلوا ذلك دون موافقة والدهم وغادروا أثناء غيابه وأخذوا معهم أتباعهم، وبعد وصولهم إلى هناك بقليل وبالتحديد إلى «رأس الخيمة» خططت جماعة من «بني الباطنة» ومن «صحار» لمهاجمتهم ليلاً وقتلهم. ونفذت تلك الجماعة

الهجوم إلا أنهم لقوا مقاومة باسلة من قبل أبناء «سعود» ورجاله، وأجبروا على التراجع بعد أن تكبد الطرفان بعض الخسائر.

إثر هذه الحادثة، وصلت إلى «مطلق المطيري» قائد القوات المتواجدة في البريمي عدة رسائل قام على إثرها بضم قواته إلى قوات الأمراء الثلاثة، وتولى «تركي» أكبر الأمراء منصب قيادة كافة القوات. وأسفر ذلك الترتيب عن حملة نظامية جديدة سرعان ما هاجمت منطقة «مطرح» على الساحل والقريبة من «مسقط»، وتمكن السعوديون من الاستيلاء عليها. هذا وانتشرت قوات «تركي» في كافة أراضي «عمان» بدءًا من «الظاهرة» ومروراً بـ «الباطنة» باتجاه «صور» و «جعلان». وكانت الأوامر الصادرة إلى القوات السعودية تتلخص كسب الغنائم وفرض النفوذ دون احتلال المناطق، إلا أن «سعود» استاء من الأعمال التي كانوا يقومون بها، أرسل فرقة مؤلفة من أربعين رجلاً إلى «البريمي» وأمرها باحتلال القلعة هناك وأخذ مكان الحامية الموجودة فيها بقيادة «ابن مزروع». كما أمرها بعدم السماح للأبناء المتمردين بالدخول إليها، ووجه في الوقت نفسه أوامره إلى «مطلق المطيري» بأن يجلي قواته عن منطقة «عُمان» وأن لا يترك ولا حتى رجل واحد خلفه هناك.

بدأ الأمراء الشباب يشعرون بالعواقب الوخيمة التي جلبتها عليهم نزواتهم، ورفض «سعود» أن يصغي إلى التوسط والشفاعة لهم وأصر على أن يستسلموا له دون شروط. وعلى أساس هذا الإصرار رافقوا «مطلق» مع قواته المنسحبة باتجاه «الأحساء» إلا أنهم رفضوا التقدم إلى أبعد من ذلك لخوفهم من مواجهة غضب والدهم. لكن في النهاية وافق «سعود» على العفو عنهم وعادوا لوالدهم في الدرعية ليحظوا منه بكل دلائل وعلامات

الغضب وعدم السرور لتصرفهم الطائش وغير المسؤول. حدث أن سقط ناصر مريضاً ومات على إثر ذلك المرض بعد شهرين، لكن «سعود» لم يحزن على وفاته ولم يشارك في جنازته. وجد «سعود» نفسه الآن مضطراً لمعالجة العاقبة التي نجمت عن عملهم الطائش وعن مغامرتهم التي أسفرت في نهاية المطاف عن نفور واشمئزاز الناس من تصرفاتهم.

خرجت قبيلة «بني ياس» من منطقة «الظاهرة» في تمرد مكشوف، فما كان من «سعود» إلا أن فوض «عبد العزيز بن غردقة» من منطقة الأحساء بمعالجة تلك المسألة. وصل «ابن غردقة» إلى «الظاهرة» في شهر آيار من عام ١٨١١ وعلى الفور اشتبك مع «بني ياس»، إلا أن القوات السعودية منيت بهزيمة شديدة وقتل قائدها أيضا. أصبح من الواضح الآن أن «عُمان» وصلت إلى مرحلة التخلي عن اعتمادها على الدرعية.

تم مجدداً تعيين «مطلق المطيري» في مركزه القديم، وذلك لمراقبة تطورات الأحداث. كانت «عُمان» آنذاك في حالة فوضى، وفي نهاية العام أو أوائل عام ١٨١٢ وبالتحديد في شهر كانون الثاني قام حاكم مسقط «سعيد بن سلطان» - بعد أن طلب نجدة من إيران - بأن جهز جيشاً بلغ تعداد أفراده ثلاثة آلاف جندي - وهاجم المناطق الخاضعة للسعوديين. وهناك بدأ يجول بقواته حولها وشرع في أعمال السلب العشوائية، وتمكن من الاستيلاء على مركز «إسماعيل» الذي يعتبر مقر قيادة عائلة «الجبري». إلا أن «مطلق» أحكم قبضته على حركة التمرد واشتبكت قواته مع قوات حاكم مسقط في منطقة بين مراكز «إسماعيل» و «البريمي». رجحت كفة قوة جيش «مطلق» وفرت قوات جيش مسقط أمامه وطاردتهم القوات السعودية بالصياح والهتاف ملحقة بها

خسائر كبيرة في الأرواح وفي العتاد حيث. كانت الغنائم التي جمعتها القوات السعودية كثيرة جداً واشتملت على المدافع العشرة التي كانت بحوزة جيش مسقط، فأرسل «مطلق» تلك المدافع إلى الدرعية كما أرسل معها حصة الخزينة الوهابية من الغنائم. استغرقت تلك العمليات أكثر من عام بدأ من زيارة الأمراء الثلاثة إلى «عُمان».

يبدو ظاهرياً على الأقل أن الوضع كان مستقراً في كافة أرجاء تلك المنطقة باستثناء بعض القرى التي كان ممثلون عن «آل سعود» يمارسون فيها سلطاتهم الفعلية.

وعند عودته من مكة في عام ١٨١١ سمح «سعود» لزعماء «آل خليفة» الذين كانوا لا يزالون في السجن لديه بالعودة إلى ديارهم شريطة أن يقبلوا بسلطته وبحكمه على كافة مناطقهم. تزامنت عودتهم مع حدوث اشتباك بحري بالقرب من الجزر البحرينية دار بين سفن «إبراهيم بن عفيصان» التي تدعمها قوات «رحمة بن جابر العذبي» من منطقة «خور حسن»، وكذلك قوات «أبو حسين» من الهولة بالقرب من الشواطئ القطرية، وبين أبناء زعماء «آل خليفة» الذين كانوا محتجزين في الدرعية.

احتدمت المعارك بقوة، ويبدو أنها انتهت دون نتيجة محددة، علماً بأن القوات البحرينية تكبدت الكثير من الخسائر، واشتعلت النيران في بعض القوارب وتفجرت حمولتها من الذخائر وغرقت، وخسر كل طرف بفعل هذه الحرائق والتفجيرات حوالي سبع سفن، وبلغ عدد القتلى من الجانب البحريني ألف رجل ماتوا ما بين قتيل وغريق ومحروق، وكان من بين القتلى «راشد بن عبد الله بن خليفة»؛ وبلغ عدد القتلى بين صفوف

السعوديين مائتي رجل بمن فيهم زعيم قبيلة «الهولة».

قرر العثمانيون في صيف هذا العام محاولة استعادة مناطق الحجاز من أيدي السعوديين، ولذلك بدأوا في إعداد العدة على نطاق واسع، وأرسلت القوات العثمانية لدعم الفرق التي كانت متوجهة إلى سوريا ومصر. وتم أيضاً إرسال كميات كبيرة من مستلزمات الحرب بما فيها المدافع، ومدافع الهاون وما شابهها إلى «علي باشا» الذي عين في منصب القائد العام للحملة. لم تواجه القوة العسكرية التي أرسلت عن طريق البحر أية صعوبات في احتلال ميناء «ينبع»، وتوجهت القوات الرئيسية العثمانية التي كانت تحت إمرة «أحمد طوسون باشا» (ابن محد علي) براً وبحراً وبلغ تعداد تلك القوة حوالي أربعة عشر ألف جندي تركي ومغربي. حدث أن هرب أمير «ينبع» إلى المدينة فما كان من الأمير «سعود» إلا أن أرسل منادين إلى الشرق والغرب لحشد كل الطاقات لمقاوة الغزو العثماني. ووضع القوات السعودية تحت إمرة ابنه «عبدالله» الذي ظهر في تلك المرحلة على ساحة الصحراء العربية للمرة الأولى. تمركز «عبد الله» بقواته في منطقة «الخيف» وهي أضيق المناطق في «وادي الصفرا» والواقعة على بعد نصف المسافة بين «المدينة» والساحل، وانتظر هناك وصول القوات العثمانية المعادية. شملت قوته على حوالي ثمانية عشر ألف من أقوى المقاتلين من بينهم حوالي ٨٠٠ فارس من فرقة رجال «الوشم» ورجال قبائل «حرب»، وكانت تلك الفرقة تحت إمرة «مسعود بن مضيان»، ووضع «عبد الله» فرقة «مسعود» هذه في أحد أطراف الوادي كقوة احتياطية تتصدى للقوات التركية في حال قدمت من ذلك الصوب. لكن تقدمت القوات التركية عبر الطريق الرئيسي للوادي

مروراً بواحة «الحمراء» وهي أقرب نقطة على طريق القوافل القادمة من «ينبع»، فأرسل «عبد الله» قواته المتقدمة لمواجهتهم لكن القوات التركية أجبرت قواته على التراجع. انتشرت القوات التركية في مواقع معينة استعداداً لمهاجمة القوة الرئيسية في جيش «عبد الله»، وقرر «عبد الله» أن يدفع بفرقة الخيالة التي كان يقودها أخوه «فيصل» وزعيم قبيلة مطير «حباب بن قويسان». احتدم القتال بين فرقة الخيالة والقوات التركية وتكبد الطرفان الكثير من الخسائر، لكن البدو في القوات السعودية وقبل بدء الاشتباك مع القوات التركية أصيبوا بالجبن، وهربوا تاركين المقاتلين السعوديين الحارسين للسلطة يتصدون لهجمات القوات التركية، واستمر هذا الوضع لمدة ثلاثة أيام بعدها أمر «عبد الله» قوته الاحتياطية بمهاجمة حاصرة جيش الأتراك. غير ذلك الهجوم القوي مجرى أحداث ذلك اليوم واضطرت القوات السعودية والمغربية إلى الهرب تاركين وراءهم كل معداتهم بما فيها المدافع السبعة، فطاردتهم القوات الوهابية إلى أسفل الوادي، ووصل الناجون من الأتراك إلى شاطئ «بريكة» واختبأوا في السفن الراسية في «المكلا». قتل من الأتراك حوالي أربعة آلاف رجل وقتل من القوات السعودية حوالي ستمائة رجل كان من بينهم الأمير «مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود» كما قتل عدد من كبار القادة المشهورين مثل «هادي بن قرملة» من قبيلة قحطان. حدثت معركة «الخيف» خلال النصف الأول من شهر كانون الأول عام ١٨١١، وكان السعوديون أول من ضحى في نضال استمر على مدى سبع سنوات من القتال والمعارك.

وبينما كانت القوات التركية في ملاذها تضمد جراحها، قاد «عبد الله»

وبجـرأة تامـة كـل قـواته وسـار بهم في طريق الحج مـاراً بمنطقـة «بدر» التي شهدت إحدى انتصارات الرسول محمد ﷺ على قريش قبل حوالي اثني عشر قرناً. توجه بتلك القوات نحو مكة وهناك قابل والده الذي كان يؤدي فريضة الحج للمرة الثامنة، ووهب ثمار ذلك النصر لله سبحانه وتعالى.

رافق الملك «سعود» في حملة الحج تلك عدد من المقاتلين الذين لم يكن تعدادهم أقل من تعداد جيش ابنه في أرض المعركة وبعد انقضاء شعائر الحج أعطيت بعض تلك القوات فترة راحة في حين تمت إعادة انتشار بعضهم الآخر في منطقة «المدينة» استعداداً لمجابهة أي وضع يمكن أن ينجم بسبب تواجد قوات العدو في منطقة الساحل. لم يتشجع الشريف «غالب» بفعل صلة النسب بينه وبين منقذيه من براثن القوة التركية أن ينضم إلى صفوف القوات السعودية أو أن يبدي القليل من مشاعر الود والاحترام القائمة بينه وبين «سعود» على مدى العديد من السنوات. على أي حال انقضت شعائر الحج وسط مظاهر العظمة والأبهة ولم تشارك فيها هذه المرة أيضا أية حملات خارجية، كما انتهت بدون أي حدث يجدر ذكره. رافق «عبد الله» والده في طريق عودته إلى الدرعية ووصلوا بقواتهم إلى هناك في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨١٢.

كان «محمد علي باشا» يدرس الوضع بجدية وعناية ويفكر في ترميم الوضع الناجم عن هزيمة ابنه في منطقة «الخيف». بدأت التعزيزات تنصب على منطقة «ينبع» وكانت جميعها تحت إمرة «أحمد بن نبارات» الملقب بـ «بونابرت»، وعليه بذلت كافة الجهود الرامية إلى تماسك القبائل هناك،

وانضمت إلى تلك القبائل قبيلة «جهينة» من منطقة «ينبع»، كما انضمت إليها العشائر الجبلية من «حرب». تمكن الأتراك من احتلال واحة «ينبع النخل» في المناطق الداخلية وأصبح «وادي الصفا» مكشوفاً أمامهم، فتقدمت قوات الأعداء نحو «المدينة» ووصلتها وطوقتها في منتصف شهر تشرين أول. كانت أوضاع إحدى الحاميات السعودية سيئة بسبب عدة إشكال من الأمراض التي أصابت جنودها. وبعد قصف الأتراك للمدينة اضطر السكان إلى فتح أبوابها أمام العدو الذي أجبر عدة حاميات في عدد من القلاع (التي قاومت ببسالة) على الاستسلام.

وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كانت كل «المدينة» قد أصبحت في قبضة الأتراك. وعلى ما يبدو لم يبدي «سعود» أي جهود لدرء هذه الكارثة. تمكن الأتراك من قتل أكثر من نصف رجال الحاميات التي تركها «سعود» خلفه بعد آخر حج قام به. وأصبحت القوات التركية تسيطر بشكل تام على مناطق الحجاز وعلى طول الشريط الذي يربط «ينبع» بالمدينة. نظرت السلطة السعودية إلى هذا الوضع على أنه وضع خطير للغاية، لكن كان هم «سعود» بالدرجة الأولى التخطيط للقيام برحلة حج أخرى إلى مكة، وكانت تلك الحجة التاسعة والأخيرة له. ومن بين الترتيبات التي أعدها لذلك الغرض حدث أن أرسل «سعود» ابنه «عبد الله» على رأس قوة كبيرة ليتفحص المواقع الدفاعية في منطقة مكة، وأمضى «عبد الله» في معسكر نصبه بالقرب من «وادي فاطمة» بعض الوقت دون حدوث أية مشكلات. وعند وصول والده مع قواته إلى ضواحي مكة انضم «عبد الله» إلى تلك وساروا جميعاً لأداء شعائر الحج وسط الاحتفالات التي شهدتها مواسم الأعوام السابقة.

ومع بداية شهر كانون الثاني عام ١٨١٣ انطلق «سعود» بقواته عائداً إلى الدرعية تاركاً خلفه جزءًا كبيراً من قواته التي جاءت معه للدفاع عن مكة، وأمر ابنه «عبد الله» أن يعسكر بقواته في «وادي المار» وهو الجزء الأوسط من «وادي فاطمة» الذي يشطر الطريق إلى المدينة إلى شطرين. وبالرغم من أن «غالب» أبدى كل الود ومشاعر الصداقة التي كان يبديها في الأعوام السابقة، إلا أن «سعود» اتخذ احتياطاته وجعل «غالب» يجدد يمين الولاء والإخلاص وأن يقسم بكل ما هو مقدس بأنه لن يخونه. وكانت آخر هدية قدمها «سعود» إلى مكة الرداء الأسود الذي ألبسه للكعبة.

وبعد مغادرة «سعود» مكة بفترة قصيرة بدأت القوات التركية المتواجدة في «المدينة» و «ينبع» بالزحف على مكة، وما إن وصلت أخبار ذلك الزحف إلى «غالب» حتى سارع إلى تغيير موقفه، وقد تنبه «سعود» لذلك التغيير في الموقف وأمر الحاميات السعودية بالانضمام إلى القوة الرئيسية للدولة، وزحف بقواته إلى الممرات التي تربط جبال الحجاز مع صحاري نجد الشاسعة، وتقدم باتجاه منطقة «عبيلة» عند سفوح مرتفعات الطائف، ومن هناك أرسل «عثمان المضايفي» إلى مقر القيادة في الطائف وأمره بالدفاع عن تحصيناتها مهما كلف الثمن وعاد «عبد الله» إلى منطقة «الخرمة». ويعلق «ابن بشر» بشكل غريب قائلاً إن أعمال الشغب والاضطرابات أحاقت بالمسلمين بسبب خطاياهم وبسبب غضب شديد من الله عليهم - نسأل الله لنا العفو والعافية - على حد تعبير «ابن بشر». بدا خوف «عثمان المضايفي» يظهر تحسباً من غضب ومما قد ينزل بهم من عقاب، وما إن وصل إلى «الطائف» حتى جمع أبناءه ونساءه وبعضاً من خيوله وهرب (قبل أن ينضم

كما هو مقرر إلى قوات عبد الله) في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٣م.

دخلت قوات «طوسون» مكة دون أية مقاومة. استقبلها «غالب» بالأحضان وبكل الترحيب، وبعد بضعة أيام تمكنت القوات التركية من احتلال الطائف وسارعت كل القبائل التي كانت تسكن المرتفعات هناك إلى الانحناء للحكم الجديد. لكن الواحات الغربية أبقت على ولائها لحكم «سعود»، كما حافظت قبائل المرتفعات في الجنوب وفي مناطق «تهامة عسير» على ولائها له أيضاً.

لم يعد حكم «سعود» قائماً على أساس وطيد، وأصبح محفوفاً بالمخاطر ومتقلقلاً، وأدرك «سعود» أنه لا يمكن لشيء أن يعدل من كفة الميزان سوى ردة فعل قوية يجابه بها الغزو التركي الذي تعززت قوته بسبب سيطرته على مناطق الحجاز. وعلى الفور انطلق «سعود» شخصياً على رأس قوة ضاربة جمعها من كافة مناطق نجد سواء من البدو الرحل أو من الحضر، واتجه بها نحو «الحناكية» وهي واحة هامة تقع على الطريق الرئيسي بين المدينة والقصيم، وكانت القلعة هناك تحت سيطرة القوات التركية بقيادة «عثمان كاشف» كما كان مناصروه من قبيلة «حرب» يسيطرون على آبار المياه هناك، وعند مشاهدة القوات السعودية فر «عثمان كاشف» واختبأ بين الصخور البركانية في منطقة «الحرة» والممتدة إلى مسافة تصل إلى «المدينة» تاركاً وراءه خيامه وكل معدات معسكره.

تقدم «سعود» بقواته وحاصر القوات النظامية الموجودة في القلعة، لكن بعد قتال بسيط طلبت تلك القوات وقف القتال وسمح لها «سعود» بالرحيل

شريطة أن لا تتوجه إلى «المدينة» بل ترحل مباشرة إلى العراق ومن هناك قام أمير «جبل شمر» ورجاله المقاتلين بمرافقتهم وفق ما اقتضت الظروف. تقدم «سعود» بعد ذلك على رأس قواته إلى «المدينة» وقام خلال زحفه بالاشتباك مع بعض التجمعات البدوية، وواصل المسير إلى أن واجه بالقرب من «جبل أحد» مجموعة كانت خليط من الخيالة الأتراك والبدو على ظهور الجمال. تمكن «سعود» من هزيمتهم واستمر في مطارتهم إلى أن احتموا بأسوار «المدينة»، وبعد ذلك جاب أطراف «المدينة» استعداداً للانقضاض عليها، ووصل في تطوافه لوادي «الحسي» ومن هناك انحدر بقواته باتجاه وادي الصفرا وغنم أثناء الانحدار كل ما كان في طريقة. وبعدها اتجه جنوباً نحو الجبال والمناطق البركانية إلى أن وصل «السويرقية» وهناك استسلم الأهالي ووافقوا على التنازل عن نصف غلتهم من التمور التي كانوا يعملون على جمعها طيلة شهر آب.

مكث «سعود» بعض الوقت في المناطق المجاورة ليوزع غنائم الحرب ويراقب تطورات الأمور، وفي تلك الأثناء كلف «طوسون» (مصطفى باشا) بتنظيم حملة للهجوم على «تربة» حيث كانت قوات تركية تحاصر حامية سعودية. وبعد مضي يومين على ذلك الحصار وصلت قوات من «بيشة» ومن مناطق أخرى لتساند الحامية السعودية، وفي الوقت الذي كانت فيه القوات السعودية مشتبكة مع القوات التركية حول تلك الحامية، قامت مجموعة احتياطية من القوات السعودية بالالتفاف على معسكر الأتراك واستولت عليه وأجبرت القوات المدافعة عن ذلك المعسكر على الفرار، عندها سحب «مصطفى باشا» قواته وسار بها نحو الطائف وهناك اشتبك مع

القوات التي حشدها «عثمان المضايفي» لمهاجمة عدة قلاع صغيرة. والجدير بالذكر أن العرب كانوا قد استولوا على العديد منها وتوجهوا نحو واحة «بسال» المترامية الأطراف والتي يوجد فيها عدد من الحاميات المحصنة التابعة لجماعات «الشفرة». وبعد أن استولى «عثمان» على هذه الأماكن قام الشريف «غالب» على رأس حامية من القوات التركية النظامية بمهاجمته. وبعد حصار دام لعدة أيام تمكن «غالب» بهجوم عاصف من الاستيلاء على هذه الأماكن وذبح كل من كان يدافع عنها بحد السيف، لكن تمكن «عثمان» من الهرب فقامت مجموعة من رعيان عتيبة بتقفي أثره وهاجمته في منطقة يقال لها صحراء «الحزم» وأسرته وسلمته إلى الشريف «غالب» الذي حظي في نهاية المطاف برأس وزيره السابق وأمر بإعدامه.

كان «سعود» في تلك الفترة قد رجع إلى الدرعية بعد أن قام بجولة استكشاف للمناطق القريبة من «المدينة» و «السوريقية». وهناك وجد نفسه مضطراً للتعامل مع المشكلات التي ظهرت في مقاطعة «عُمان». نصب «سعود» مجدداً «مطلق المطيري» قائداً على القوات السعودية في تلك المنطقة، فقام «مطلق» بمهاجمة «جعلان» في أقصى جنوب «البريمي» وفاز بالكثير من غنائم الحرب، لكن قبائل تلك المناطق جمعت قواتها لمطاردته فما كان منه إلا أن واجهها وخسر تلك المعركة وقتل فيها. وقبل أن يحاول «سعود» القيام بأي عمل لإعادة الأمور إلى طبيعتها ظهرت أمامه أزمة جديدة في المناطق الغربية توجب عليه التعامل معها.

قرر «محمد علي باشا» في شهر تشرين الأول عام ١٨١٣ أن يرافق المحمل الذي كان يقل الحجاج المصريين المتوجهين إلى مكة للمرة الأولى منذ

عـدة سنوات. ودخل «مـحـمـد علي باشـا» مكة في ظل الظروف والأحـوال المواتية لذلك الحدث التاريخي، وبدأت قواته بالاستيلاء على كافة القلاع والمراكز الدفاعية القوية في المدينة. ومثل «غالب» بين يدي «محـمد علي باشا» وقدم له كل ضمانات الولاء إلى جانب الهدايا الثمينة، وبادله «محمد علي» نفس حفاوة الاستقبال ومَنَّ عليه بالهدايا وشكره على الخدمات التي قدمها للأتراك. لكن بعد أن استتب الحكم والإجراءات الأمنية في المدينة الأم، قـام «مـحـمـد علي» في الثـالث من شـهـر تشرين الثـاني عـام ١٨١٣ باعتقال «غالب» وطرد أسرته من قلعة «أجياد» التي كانت تشرف على الحرم المكي، وسجن أبناءه الاثنين وصادر كل ثروته الطائلة وعين مكانه أخـاه «سرور بن يحيى بن سرور» أميراً على مكة. وفي فترة لاحقة أمر «محـمد علي» بنقل «غالب» وولديه «عبد الله وحسين» إلى مصر ومن هناك رحلوا جميعاً بموجب فرمان من الصدر الأعظم إلى «سولنيكا» ليعيشوا تحت إقامة جبرية مكرمين تصرف لهم رواتب تغطي احتياجاتهم. وأمر الصدر الأعظم أيضاً بإعادة بعض ممتلكاتهم إليهم، وبقي «غالب» في ذلك المنفى إلى أن مات عام ١٨١٦ متأثراً بوباء الطاعون.

بعد أن قام محمد علي بكل الترتيبات الإدارية الضرورية للسيطرة الفعلية على مناطق الحجاز، بدأ يتطلع إلى مسافات بعيدة عن الحجاز تصل إلى مناطق نجد التي فكر في الاستيلاء عليها. فر العديد من أشراف مكة إلى المناطق الجبلية هرباً من التعرض لغضب الباشا ونزواته وتحرشاته بهم، لكن «محمد علي» استثنى من بين أولئك الأشراف الشريف «راجح» الذي كانت

له خبرة كبيرة في أمور الصحراء، واعتمد علية كأداة مناسبة لإغواء باقي العرب بالوقوف إلى جانب قواته، وربما كان من المحتمل أن يعينه أميراً على مكة بدلاً من أخيه «غالب»، لكن لم تكن لدى «راجح» رغبة في خدمة الأتراك. حدث في أحد الأيام أن هرب «راجح» من مكة وانضم إلى القوات السعودية في «تربة»، وقام شريف آخر يدعى «يحيى بن سرور» بنفس العمل والتحق بالقوات السعودية في منطقة «تهامة»، فأرسلت القيادة التركية «طوسون» على رأس قوة لتحسم الأمر مع قوات الحامية الموجودة في «تربة»، وبعد بضعة أيام من القصف المدفعي والمناوشات قرر «طوسون» التراجع عن الواحة، وبهذا سجلت نهاية ذلك العام توقفاً في الأعمال العسكرية التي على ما يبدو لم يكن بالإمكان الاستمرار بها. وربما تجدر الإشارة بشكل عابر إلى أن هذا العام المأساوي الذي شهدته فترة حكم «سعود» والمصادف في ١٢٢٨ هجري، جاء مطابقاً لامتداد العام الميلادي ١٨١٣ إذ كانت بدايتهما في الرابع من شهر كانون الثاني ونهايتهما في الثالث والعشرون من شهر كانون أول.

شهدت الأشهر الأولى من عام ١٨١٤ عمليات عسكرية غير حاسمة حدثت في مناطق «تهامة» بالقرب من القنفذة وحول «الحناكية»، لكن اجتياح الأسراب الكثيفة من الجراد لمنطقة نجد أحدثت بين الأهالي مخاوف وذعر فاقا المخاوف والتهديدات التي سببتها قوات الغزو التركي المتواجدة على مسافات بعيدة عن نجد.

ووري جثمان الأمير «سعود» التراب إلى جانب قبور آبائه وأجداده في

الأول من شهر آيار عام ١٨١٤ ، تاركاً لابنه «عبد الله» مهمة الدفاع عن المملكة وعن الدعوة السلفية التي قدم من أجل التوسع بها أكثر ما يمكن أن تصل إليه مخيلة مؤسسيها الأصليون. ومختصر القول إن «سعوداً» كان رجلاً مسلماً قوياً وسلفياً شجاعاً ومحارباً باسلاً، وملكاً عظيماً بمقياس منهج الأيام الخوالي والأزمنة الغابرة المنصرمة.

Obeikandl.com